من دستور الثورة إلى دستور الدولة

المحامي د. منير الشواف

مصطلح الدستور في القاموس السياسي يعني مجموعة الأحكام الأساسية والمبادىء والقيم التي تؤسس لمجتمع في طور الإنشاء والتأسيس ويحدد علاقات السلطات الثلاثة التشريعية والقضائية والتنفيذية، وقد يكون بعد ثورة اجتماعية فكرية أو سياسية ولا يدخل في هذا المصطلح أو التعريف الانقلابات العسكرية القسرية التي استعملت الجيوش كقوة مادية استبدادية ضد إرادات قيم الشعوب ومبادئها.

بناء على ما تقدم لا يجوز استعمال مصطلح لفظ دستور للثورة لأن الثورات لم تصبح دول بعد، ولو أنها تنادي غالبًا بالكفاح من أجل جعل قيمها التي كافحت من أجلها قيمًا للمجتمع المنتظر. ولذلك ليس للثورات دساتير بل للثورات مشروع قيم ومبادىء تسعى وتكافح من أجلها، لكن لا يجوز استعمال مصطلح دستور للثورة.

إن الثورات التي لم تصل إلى مبتغاها، وهو تغيير القيم والمبادى السائدة وصولا إلى الدولة، هذه الثورات عُرفت في عهد الرومان واليونان والعالم الإسلامي، وسوف نهتم في هذا البحث بالثورات التي انتقلت إلى فكر وحقيقة الدولة، وأهمها التي أثرت في التاريخ الحديث مثل الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ وثورة الشعوب الأوروبية التي قطنت الأمريكيتين على إخوتهم وأبناء جلدتهم المستعمرين التي حققت الدولة المبتدئة استقلالها عام ١٧٧٦م.

أما الثورة الفرنسية، فكانت نتيجة ترهل النظام الملكي واستبداده وعدم اكتراثه للحالة الأجتماعية والحياتية للشعب، لدرجة أنه نقل عن الملكة ماري أنطوانيت أن أحد مستشاريها الأمناء، قال لها إن الشعب جائع ولا يجد (الخبز) فأجابت إذًا يأكل (كاتو). إضافة إلى تأثير المفكر (مونتسكيو) وكتابه (روح القوانين) الذي كان له الأثر الكبير في تفتح مثقفي المجتمع ونواديه، على أهمية الدستور للأمة، وكذلك المفكر والفيلسوف "جان جاك روسوا" ١٧١٢ –١٧٧٨م الذي طرح في مؤلفاته ورواياته الفكرية السياسية والاجتماعية، كيفية القضاء على الفساد، والفكر السياسي المنحرف الذي يمنع الأمة من النهوض بما في ذلك الفكر الكَنَسي الذي كان المعيق الأساسي للتفكير والنهضة.

إذًا هذه الظروف السياسية والأحتماعية هي التي أهّلت الثورة الفرنسية للنجاح، وطرح قيمها في المجتمع، كما أن هذا الفكر الثوري هو الذي فتح المجال أمام النخبة والشعوب في بدء القضاء على المجتمع السابق، وتأهيل البديل الذي يقيم المجتمع الجديد، لكن لم يكن لهذه الثورة دساتير، إنما كان لها واقع محسوس ومنطلقات، الأمر الذي هيأ للسيطرة العسكرية القادرة على فرض السيطرة السياسية في الدولة والمجتمع.

كذلك الثورة الأمريكية التي حققت الاستقلال عام ١٧٧٦ لم يكن لها أي دستور سوى قيم الاستقلال وطرد المحتل والحرية، وبعد نجاح الثورة وقيام فيدرالية من إحدى عشرة ولاية وبعد أن تم التحرير وضع الأباء المؤسسون إعلانًا دستوريًا لفدرالية أسموها الولايات المتحدة، واستمر هذا الإعلان تحت التعديلات حتى غدا دستوراً مواكبًا لانضمام ولايات أخرى بلغت الخمسين، لكن لم تتحقق هذه الفدرالية الدستورية العظيمة إلا في حراب القوة وارتكاب الفظائع الدموية والمجازر بين الشمال والجنوب واقتتال الشرق والغرب بعد أن تم طرد المستعمر البريطاني والفرنسي والاسباني، فالدستور الأمريكي كان ولادة واقع سياسي من جراء سيطرة عسكرية واقتصادية كان وراءها الآباء المؤسسون من رجال أعمال وقادة عسكريين بعقلية رأسمالية كانوا مصدر القيم والمبادئ التي مكّنت الدستور الأمريكي من التشكيل مصداقًا للمثل الشائع في الولايات المتحدة، واصفًا رجل الأعمال "فورد" أنه لم يخالف القانون الأساسي قط، لأن هذا القانون وضع لمصلحته

مما تقدم يُفهم أن دساتير الدول التي كان لها أثر في العالم المعاصر كان مصدرها حركات تحررية للخلاص إما من مستعمر أجنبي كما هو في الحالة الأمريكية أو من حكام مستبدين كما هو في الحالة الفرنسية، وكان لقيم ومبادىء الثورة الفرنسية أثر على شعوب أوروبا، وتجدد وتتابع هذا الأثر حتى أصبحت قيمه ومبادؤه مصدراً رئيسيًا لدول العالم وخاصة الشرق الأوسط والعالم الإسلامي. ومنذ مراحل ضعف الخلافة الإسلامية في استنبول في نهايات القرن الثامن عشر وحتى عصر الاستقلالات الشكلية، حيث انسحب فيها المستعمرون من بلاد العرب والمسلمين في جيوشهم، ونُصِّب حكام ملحقون بهم ويدورون في فلك نفوذهم، ليكونوا حكاماً بالوكالة عنهم في العالمين العربي والإسلامي.

إن انتقال حالة الثورات الواقعية التي وصلت للسلطة وانتقلت إلى مرحلة الدولة يقتضي عليها وضع الدستور الذي يحدد القيم والمبادى الأساسية التي تحكم العلاقة بين الناس بعضهم بعضًا، وبين الدول والشعوب داخليًا وخارجيًا، وهذا ما فعله الرسول محمد صلى الله عليه وسلم "الثائر" على قيم المجتمع

المكي برسالة أممية للناس كافة عندما وصل مهاجراً من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، فأعلن ما يسمّوه الآن الإعلان الدستوري.

وصل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة بعد أن تمكن جناحه العسكري ثوار المدينة (الأنصار) حيث أصبحت كلمتهم هي العليا في المدينة المنورة، وكانوا قادرين على حماية رسولهم ودعوته ((سيرة ابن هشام)) حيث بايعوه على قتال الأبيض والأحمر والأسود من الناس وبشهادة وحضور عمه العباس رضي الله عنه، وقد حضّر للاستيثاق لابن أخيه عِلماً أنه كان ما زال على الشرك، ولقد أعلن وثيقته التي سيحكم بها البلاد جميعها وهي المدينة المنورة آنذاك وما حولها من الأعراب، وبدون تردد ولا خوف ولا وجل ممن يسمونهم أقليات المشركين واليهود وأهل الكتاب وحتى المنافقين، وقد حددت هذه الوثيقة التي أعلنها الرسول صلى الله عليه وسلم منفردا كرئيس للدولة الإسلامية وليس كنبي ورسول فقط، وكان بندها الأول "المهاجرون والأنصار واليهود والمشركون أمة واحدة من دون الناس" وما تلا هذه الرسالة من بنود حددت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قائد الدولة والمجتمع وأن كل الذين يعيشون في هذه الدولة هم رعايا لها، لهم حق العدل والمساواة في المواطنة والحقوق الشخصية، وعلى الدولة واجب حمايتهم ورعايتهم سواء أكانوا مسلمين أم مشركين أم يهوداً أم منافقين.

إذاً بعد نجاح الثورات واستلام السلطة بالقوة أم بالنصرة، يكون حق الجميع على الدولة إصدار (إعلان دستوري) يحدد المنطلقات الدستورية العامة الواجبة التطبيق، والتي تتعلق بعلاقات الأفراد مع بعضهم البعض وحقوق الرعية على الدولة وحقوق الدولة على الرعية وتنظيم علاقات الدولة داخلياً وخارجياً بغض النظر عن دينهم ومعتقدهم أو الجنس أو الطائفة، لأن رسالة الإسلام للناس كافة، كما هي في قوله تعالى :**يَاأَيُّهَاالنَّاسُإِنَّاخَلَقْنَاكُممِّنذَكَرٍوَأُنثَىٰوَجَعَلْنَاكُمْشُعُوبًاوَقَبَائِلَلِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّأَكْرَمَكُمْعِندَ اللَّهِأَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّاللَّهَعَلِيمٌخَبِيرٌ** (الحجرات : ١٣).

يكفي أن بدأ الخطاب الدستور بـ (يا أيها الناس)، يعني مسلمهم وكافرهم وبارّهم وفاجرهم وأسودهم وأبيضهم كلهم سواء أمام الدستور والتشريع الذي أنزله الله رحمة للعاملين، وإن موضوعنا هنا ليس لبحث تفاصيل المواد الدستورية، بل لتبيان وتوضيح أن الاستيلاء على السلطة من قبل الثوار أصحاب القيم والمبادىء التي ثاروا من أجلها سواء من أجل قوانين وضعية أو إلهية كلهم نفذوا الشريعة الثورية

التي ناضلوا وقتلوا أو استشهدوا في سبيلها، ولا يحتاجون إلى جمعية تأسيسية أو أحزاب أو مجتمعات مدنية أو طائفية لم تشارك في هدم الوضع الفاسد، كما هو في حالة الثورة الفرنسية أو الثورة الأمريكية أو حالة الدعوة الإسلامية ابتداء وانتهاء، كلهم فرضوا قيم ومبادئ الأفكار التي ثاروا من أجلها وبدون جمعيات تأسيسية، تشارك فيها المجتمعات الفاسدة التي ثاروا من أجل إقصائها عن مصالح الدولة والمجتمع، وهذه سُنَّة تاريخية مارستها كل الشعوب الثائرة، التي حققت نصرها بالقوة أو بالنصرة على تلك الحكومات التي قامت الثورات لاستبعادها عن السيطرة على مرافق الدولة ومفاصلها، ومن ثم تسري قيم هذه الثورات في المجتمعات وتصبح قيم الإعلان الدستوري منطلقات لقيم الأمة التي تستعد أن تموت من أجلها وللمحافظة عليها ولسنّ الدستور النهائي بموجبها من غير تردد.